المنهج الكيفي في الدراسات السوسيولوجية.

Qualitative Methodology in Sociological Studies

عمر زهواني*

أستاذ محاضر (أ)، جامعة ابن خلدون تيارت

Omar Zahouani

Associate Professor, University Iben Kaldoun –Tiaret

Omar.zahouani@univ-tiaret.dz

تاريخ الاستلام: 2025/01/26 تاريخ القبول: 2025/04/09 تاريخ النشر: 2025/05/25

الملخص: تطبيق المنهج العلمي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة، يختلف عنه في مجال العلوم الطبيعية حيث يمكن اختبار الظاهرة الطبيعية وذلك لان كل شيء بين يدي الباحث مثل الطبيب أثناء عملية جراحية أو الفيزيائي في المخبر، وهذا لا يعني سهولة دراستها ولكن يمكن عزلها تماما عن المؤثرات الخارجية ، أما الظواهر الاجتماعية والإنسانية فالأمر يختلف تماما؛ فهي ظواهر معقدة ومتشعبة جدا إضافة إلى صعوبة عزلها عن المحيط المجتمعي وإخضاعها للتجربة، إضافة إلى دقة التنبؤ في الأبحاث الطبيعية عكس التنبؤ في الأبحاث الإنسانية والاجتماعية، ذلك أن الأحداث الاجتماعية لا تتكرر بنفس الطريقة، وفي نفس الظروف المجتمعية؛ لذلك فان مشكلة المنهج في علم الاجتماع مطروحة كونها مرتبطة ارتباطا وثيقا بـرهان التشخيص الحقيقي وكشف العوامل الخفية التي تتحكم في الظاهرة المدروسة.

أزمة علم الاجتماع في المجتمعات التي لم تعرف انطلاقة حقيقية هي أزمة فكرية وثقافية بالدرجة الأولى، ولكن لا يمكن فصلها عن الجانب المنهجي كذلك على الأقل في العدد المحدود من الدراسات النوعية الموجودة في هذه المجتمعات كون المناهج أساس المعرفة العلمية التي تتطور من خلال التقنيات المستعملة من طرف الباحث لأن الأمر يتعلق بتوطين المعرفة السوسيولوجية؛ المنهج الكيفي بمدارسه المعرفية المختلفة هومنهج تجريبي، ومنهج علم الحياة الاجتماعية والتفاعل الإنساني قوامه دراسة الإنسان والواقع الاجتماعي بأبعاده المختلفة من خلال الفعل المتبادل والصيرورة المجتمعية التي تقتضي منهجية واضحة وموضوعية بعيدة عن الغموض والالتباس الناتج عن الاستيراد العشوائي لمنهجية البحث.

الكلمات المفتاحية: - المنهج الكيفي، المعرفة العلمية، أدوات البحث.

Abstract: The application of the scientific method in the humanities and social sciences particularly in sociology differs significantly from its use in the natural sciences. In natural sciences, phenomena can be tested under controlled conditions, as everything is within the researcher's grasp, similar to a surgeon during an operation or a physicist in a laboratory. While this does not imply simplicity, it does allow for the isolation of variables from external influences. In contrast, social and human phenomena are far more complex and multidimensional, making it difficult to isolate them from their societal context or subject them to experimental procedures. Furthermore, prediction in natural sciences tends to be more precise, whereas in the humanities and social sciences,

*- المؤلف المرسل

prediction is inherently less reliable due to the non-replicable nature of social events under identical societal conditions. Hence the methodological dilemma in sociology remains a central issue, as it is closely tied to the challenge of accurate diagnosis and the uncovering of hidden factors governing the studied phenomena. The crisis of sociology in societies that have not experienced a genuine scientific breakthrough is, above all, an intellectual and cultural crisis. However, it is also deeply rooted in methodological shortcomings, particularly given the limited number of qualitative studies in these contexts. Methodology forms the foundation of scientific knowledge, which evolves through the tools and techniques employed by researchers. This is especially critical when seeking to localize sociological knowledge. Qualitative methodology, with its diverse epistemological schools, is inherently experimental. It is the methodology of social life and human interaction, focused on studying individuals and social reality in all its dimensions. This requires a clear and objective methodological approach one that avoids ambiguity and confusion often resulting from the random importation of foreign research methods.

Keywords: Qualitative Methodology, Scientific Knowledge, Research Techniques.

مقدمة:

تطبيق المنهج العلمي في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، يختلف عنه في مجال العلوم الطبيعية حيث يمكن حصر الظاهرة وإبعادها تماما عن المؤثرات الخارجية، أما الظواهر الاجتماعية والإنسانية فالأمر يختلف تماما، فهي ظواهر معقدة جدا إضافة إلى صعوبة عزلها وإجراء التجربة عليها باعتبار أن صحة التنبؤ في الأبحاث الطبيعية عكس التنبؤ في الأبحاث الإنسانية والاجتماعية، ذلك أن الأحداث الاجتماعية لا تتكرر بنفس الطريقة ونفس الخصائص دون تجاهل النسبية كميزة لكل العلوم.

تراجع الدراسات التي تعتمد المناهج الكيفية للعلوم الاجتماعية يعود إلى بروز تيار الدراسات الكمية خاصة مع التطور الذي تعرفه مختلف البرمجيات في الإعلام الآلي التي سهلت وبسطت بشكل كبير إجراءات الدراسات الميدانية، أحد العوامل التي جعلها تتجمد وتتحول إلى كوابح فكرية وعلمية، أزمة العلوم الاجتماعية هي أزمة منهجية وفكرية وثقافية فالنظريات والمناهج هما أساس الثقافة البحثية، والأدوات التي من خلالهما تصل المعرفة إلى تحقيق درجات من النضج.

المنهج في البحوث العلمية بمثابة المخطط في البنايات الهندسية، لذلك يتوجب على الباحث أن يختار المنهج الأنسب للموضوع محل الدراسة، فالمنهج الكيفي كغيره من المناهج السوسيولوجية الأخرى يتناسب مع نوع محدد من الدراسات السوسيولوجية، ومن أجل التوفيق

في توظيفه لابد من معرفة ماهية هذا المنهج المزايا والعيوب بالإضافة إلى نقاط الالتقاء والاختلاف مع بقية المناهج الأخرى ، مع الأخذ بعين الاعتبار السياق الثقافي والاجتماعي لمجتمع البحث، كما تعد تقنيات جمع المعلومات الخاصة بالمنهج المعتمد من بين الخطوات المهمة في البحوث السوسيولوجية، لا يمكن استكمال كل ما يتعلق بالمنهج الكيفي دون تبني مقاربة نظرية ونموذج للتحليل يساعد على كشف العوامل الخفية التي تتحكم في الظاهرة المدروسة . وعليه ماهية المنهج الكيفي، وخطواته في الدراسات السوسيولوجيا، وكيف يساهم المنهج الكيفي في دراسة الظاهرة الاجتماعية ومعالجتها في السياق الزماني والمكاني الخاص بها مهما كانت الخصوصية الثقافية لمجتمع البحث؟

1- إشكالية تطبيق المنهج الكيفي في علم الاجتماع.

المنهج الكيفي في البحوث الاجتماعية له أهمية كبيرة، وذلك لما يمكن أن يوضحه ويكشفه في كل ما يتعلق بالظواهر والمشكلات الاجتماعية، والوصول إلى الأسباب الحقيقية التي تتحكم في الظواهر بعيدا عن السطحية، حيث يهدف في الأساس إلى فهم الظاهرة موضوع الدراسة بالملاحظة العلمية المبنية على الأسس والقواعد العلمية، وعليه ينصب الاهتمام هنا أكثر على حصر معنى الأقوال التي يتم جمعها والسلوكيات التي تمت ملاحظتها لهذا يرتكز الباحث أكثر على دراسة الحالة أو دراسة عدد من الأفراد ومحاولة فهم مواقفهم ورائهم من خلال السلوكات والتصرفات التي ينتجونها، باعتبار أن المادة الميدانية البيانات، والنتائج ليست سوى ثمرة المناهج المستخدمة، إلا أنه لا يمكن فصل المادة عن المنهج المستخدم: فما يخلص إليه الباحث الميداني يرتبط ارتباط وثيق بكيفية (المنهج المعتمد) الوصول إليه لذلك لا يجوز تجاهل المنهج الذي استخدم في جمع تلك المادة، بل يجب أن يمثل مكونا أساسيا ومهما من مكونات البحوث الميدانية (ايمرسون وآخرون، 2010، ص، 71).

حسب "ماكس فيبر"، عندما يحاول الباحث معرفة أطوار تعلم طفل أو الأحداث التي طبعت عشرية معينة فانه يستعين بمنهج الفردانية الإثنية (L'individualisme Méthodologique) كون هذه الظاهرة تندرج ضمن الصيرورة المجتمعية التي تقتضي فهم أكثر من جانب بما في ذلك المعطيات الرقمية لذلك لا يمكن تجاهل أهمية المنهج الكمي الإمبريقي، الذي له أهدافه ومميزاته أيضا لكن ودون شك له أيضا عيوبه، كما يبقى المنهج الكيفي كذلك نسبي لذلك يلجأ الباحثون إلى اختيار منهج الدراسة حسب طبيعة الموضوع، وهذا يدل دلالة واضحة على أن المنهجين يمكن أن يكونا مناسبين في الوقت نفسه للبحوث السوسيولوجية لأنهما مكملان

لبعضهما، القصد بالتكامل هو الحاجة لإجراء دراسات علمية باستخدام النوعين إن اقتضى الأمر بناء على طبيعة المشكلة وما تحتاجه الظاهرة من تقنيات لجمع وتحليل المعطيات وتفسيرها.

البحوث السوسيولوجية ذات التوجه الكمي الإمبريقي رغم أهميتها والنتائج التي يمكن الوصول إليها، إلا انه يمكن القول أن المنهج الكمي احد أسباب ضعف الدراسات في هذا المجال وذلك يعود لعدم استخدام هذا المنهج بالشكل الذي يتيح للباحث القيام بدراسات بعيدة عن القيود الرقمية والأدواتية، التي تُظهر كل شيء ولكنها تخفي الأهم، خاصة في المجتمعات المتخلفة التي لم يعرف علم الاجتماع فيها انطلاقة حقيقية وفعلية بينما يمنح المنهج الكيفي للباحث فرصة الخروج إلى الميدان دون توجيهات مسبقة مما يُمكنه من دراسة المشكلة في بيئتها وحسب طبيعتها والتعرف عليها بشكل أدق ومعالجتها وفق ظروفها البيئية والمجتمعية هذا ما يجعل الباحث قد يصل إلى نتائج دقيقة وموضوعية في دراسته رغم كل هذا نجد أن المنهج الكيفي قليل الاستخدام في البحوث الاجتماعية .

2- علم كثير المناهج قليل النتائج:

يتم تداول هذه العبارة عند بعض المختصين في علم الاجتماع، حيث يعود أصلها حسب الأستاذ (عبد الرحمان بوزيدة) إلى كتابات الاجتماع عند المشارقة، بالرغم من محدودية العبارة ودلالتها على محاولة تبرير العجز الذي يعانيه علم الاجتماع في هذه المجتمعات، إلا أنها لقيت صدى أمتد إلى الكثير من المجتمعات الأخرى بما فيها المغاربية ، حيث لم تستطع معظمها بناء قاعدة للممارسة السوسيولوجية بالمعني النبيل للكلمة، علم الاجتماع الذي مازال حبيس جدران المدرجات وقاعات التدريس، ورهينة عروض التكوين والتخصصات في المستويات الثلاثة لنظام قلص مدة التكوين، بالإضافة إلى نوعية ومحتوى عروض التكوين التي تُعد دون إشراك لكل الأطراف المعنية بالعملية التكوينية ، وكذا معايير التقييم التي تغيب فيها الموضوعية، أدى إلى الانتقال من جَمْهرة المستوى الأول إلى المستوى الثاني، ثم دَكْترة القطاع عامةً.

يشير الأستاذ (عبد الرحمان بوزيدة) إلى أن علم الاجتماع إذا ما اعتبرناه علما يملك منهجا واحدا لا غير وهو المنهج التجريبي الذي يجب أن يتكيف مع الظاهرة المدروسة، والاختلاف يكون في بناء الموضوع واستعمال التقنيات التي تختلف من باحث إلى آخر ومن مدرسة إلى أخرى.

أكتُشِف الاتجاه الاثنوميتودولوجي في (و. م. أ) من حادثة بسيطة في شكلها، كبيرة في نتيجتها من خلال نظرية النافذة المكسورة وذلك بعدم إحداث قطيعة مع المعرفة العادية المبنية على التجربة الفردية ودراسة نماذج هذه الأخير (Lebaron,2014,p,26) بداية بتوظيف الملاحظة

الميدانية المباشرة في الأحياء، تحليل سجلات الشرطة بالإضافة إلى المقابلات مع السكان المحليين والإحصائيات الإجرامية قبل وبعد القيام بالدراسة، ما يمكن اكتشافه في هذه الدراسة هو التنوع في الأدوات المغزى أنها نظرية بمنهج تجريبي ميداني ونتائج مبهرة، حيث أصبحت نموذج نظري طُبق أكثر من مجتمع على غرار هولندا، اليابان، ماليزيا أستراليا. دراسات الأخرى حققتها السوسيولوجية الأمريكية نظرية الوصم (لإرفينغ غوفمان) التي تناولت كيف تؤثر التصنيفات الاجتماعية على سلوك الأفراد من خلال نسب هوية سلبية لشخص ما ليتحول فعلا إلى هذه الهوية بتأثير من القانون والمؤسسات توصلت الدراسة إلى نتائج مهمة بمنهج كيفي يقوم على الملاحظة المباشرة للتفاعلات اليومية في بيئات مؤسساتية مختلفة مثل السجون، المدارس، الجامعات.، المقابلات الشخصية، دراسات الحالة للأشخاص الذين تم وصمهم، تحليل المحتوى للمادة الإعلامية وكيفية تصوير المنحرفين من خلال الصورة النمطية والوصم على ممارسات الأفراد في المجتمع.

كانت ومازالت السوسيولوجية في المجتمع الغربي عموما تحقق دراسات تصب في جوهر الطلب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي عن طريق المحاولة والخطأ يطور الباحثون الميدانيون أساليب علمية متميزة لكتابة الملاحظات. ومن بين الاختيارات المبدئية في هذا الصدد عملية اختيار الأدوات والمعدات التي يستخدمونها في الكتابة والبحث. فهناك كثير من الباحثين الميدانيين الذين يستخدمون مفكرة (bloc de note) صغيرة، وآخرون يفضلون مواد أقل لفتا للنظر (أوراق مطوية صغيرة) تُدون عليها ملاحظات برموز وأساليب مختلفة، ولكل باحث نظاما خاصا به إضافة إلى كونها تساعد على التدوين السريع، تتسم فوق هذا بالسرية وتضمن الحماية للبحث عموما. (ايمرسون وآخرون، 2010، ص، 88).

لذلك فمنهجية البحث بصفة عامة والمنهج المستخدم بصفة خاصة هو نشاط عملي ميداني أو امبريقي، قبل أن يكون خطوات نظرية حيث أن، الخصوصية الثقافية والظاهرتية للمجتمع هي التي تحدد نوع المنهج، فقد استطاعت بعض المجتمعات الشرق أسيوية على رأسها اليابان أن تستغل علم الاجتماع الغربي بصفة عقلانية وذكية بحيث لم تكتفي بنقل النظريات الغربية وتدريسها في الجامعات والمؤسسات التكوينية، بل درسوا هذه النظريات بدقة ووضعوها ضمن السيرورة السوسيوتاريخية للمجتمع الذي تبلورت فيه لهذا نجحوا على المستوى التعليمي والامبريقي باستنباط نظريات ذات الحجم المتوسط الخاصة بالمجتمع الياباني، وهذا أبرز مثال على التراكم المعرفي بين المجتمعات والحضارات، وبطلان فرضية الانطلاقة من الصفر والاستغناء عن التراث المعرفي الغربي.

بالرغم من هيمنة الإيديولوجيا بمعانيها المختلفة على أغلب هذه النظريات الغربية إلا أن إمكانية الاستفادة منها أمر لا مناص باستغلال عقلاني بعيدا عن الأخطاء المنهجية القاتلة في فهم وتفسير الواقع الاجتماعي للمجتمعات غير الغربية. العمل القاعدي الذي قامت به مختلف المدارس الغربية لوضع أسس المناهج العلمية المناسبة لعلم الاجتماع يتجسد في اختلاف التسميات حسب المجتمع والمدارسة السوسيولوجية بالرغم من التشابه في الكثير من الخطوات والقواعد باعتبار أن منهجية البحث واحدة لكن الخصوصية الثقافية بالمعنى الواسع للكلمة تفرض عناصر تدل على التميز والاختلاف.

3- المنهج وبعض التسميات القريبة منه في علم الاجتماع:

(المنهج ليس مصطلح أحادي المعنى في العلم (Grawits,1986) فقد نسعى إلى تجنبها (Gauthier,1992) ولكننا لا نستطيع تجاهلها طالما هي مستعملة، أن استعماله عادة ما يكون مقرونا بنعت يحدد ما هو المنهج المأخوذ بعين الاعتبار: مناهج كمية، كيفية...) (أنجرس، 2004، ص. 98) كما هناك بعض التسميات التي تتقاطع جزئيا مع كلمة منهج شكلا ومضمونا مثل المقاربة (Approche) فقد يتبع باحث ما أنه تبنى المقاربة الماركسية، أو التفاعلية التي يجب أن تظهر من الإشكالية والفرضيات، مرورا بالأدوات وصولا إلى النتائج، ومع هذا فإن اعتماد هذا الباحث أو ذاك على مقاربة ما لا يعني بالضرورة إتباعه حرفيا للنظرية محل المقاربة باعتبار عامل الزمان والمكان اللذان يفصلان بين المقاربة والموضوع محل الدراسة، بحيث يجب الانتباه من أجل عدم الوقوع في فخ الحشو المعرفي والقطيعة بين النظرية والميدان.

كما يتداخل المنهج مع النموذج النظري أو (نموذج التحليل (Paradigme D'Analyse)، وهذا الأخير يتداخل بدوره مع المقاربة النظرية وهو مجموعة من الأطر، والمفاهيم النظرية والتطبيقية الخاصة بميدان معرفي معين وهو اشمل نوعا ما من المقاربة ويندرج ضمن المنهج بصفة عامة حيث يتم توظيفه من خلال القراءة السوسيولوجية للنتائج كما يحمل البعد الإيديولوجي رغم انه يُفرض حسب طبيعة الموضوع مثل: نموذج التحليل الوظيفي، النموذج الصراعي، التفاعلي الرمزي...إلخ (أنجرس، 2004، ص. 98).

تتداخل تسمية المنهج الكيفي مع تسمية المنهج النوعي في الكتب والمراجع باللغة العربية لسبب وجيه وهو الترجمة بعض الترجمات جاءت مباشرة لكلمة QUALITATIVE، والبعض الأخر ركز على سياق الكلام ويعتقد إمكانية تعويض الكيفي بالنوعي وهي الترجمة الأنسب خاصة إذا نظرنا إلى المنهج المخالف الذي يتمثل في المنهج الكمي، بالرغم من أن كلاهما يشير إلى نفس المنهج.

المنهج إجرائيا يتمثل في الطريقة التي يتبعها الباحث لبلوغ هدف معين؛ أو يتكون من مجمل القواعد والخطوات التي يطبقها الباحث من اجل الوصول إلى المتغيرات التي تحكم الظاهرة موضوع الدراسة...وطريقة البحث التي يعتمدها الباحث في جمع البيانات والمعلومات وتصنيفها وتحليلها ليست محل اتفاق بين العلماء والمختصين هنا تبرز خصوصية علوم الإنسان بصفة عامة وعلم الاجتماع على وجه الخصوص.

وللمناهج سبل محددة يتقيد بها الباحث للحصول على المعلومات المحددة ولكل منهج أساليبه البحثية والدراسية في جمع المعطيات العلمية سواء الموجودة في المصادر العلمية أوفي ميدان الدراسة.

والواضح أن نوع المنهج هو الذي يميز البحث، لأننا نصف الطريقة المستخدمة، كون المعرفة العلمية أيضا هي خلاصة مجهود مخطط وجهد مستمر من أجل التواصل إلى حقيقة العلاقات القائمة بين المتغيرات (ففكرة المنهج "Method "بالمعنى الاصطلاحي، قد أطلقت بداية من القرن السابع عشر على يد" فرانسيس بيكون" ثم وافقه العديد من العلماء، وصار الاهتمام أكثر بالمنهج التجريبي، ومن ثمة أصبح معنى كلمة" المنهج":" هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة) (عبد الرحمان، 1963، ص. 5).

(غاستون باشلارil n'ya du science que du caché) هذه العبارة الشهيرة تلخص جوهر المعرفة العلمية كونها خفية ويصعب الوصول إليها في العلوم إلا بواسطة مجموعة من القواعد التي تهيمن على سير البحث وتحدد خطواته حتى يصل إلى نتيجة معلومة.

يعتقد كريزويل (John W Creswell) أن المنهج عمليةُ تحقيق للفهم، مستندة على التقاليد المُتميّزة لمنهج البحث العلمي التي تقوم بالكشف عن مشكلة اجتماعية. ويقوم الباحث ببناء صورة معقدة وشمولية ويُحلّلُ الكلمات ويضع تقريرا يفصّل فيه وجهات نظر الأفراد والباحثين ثم يقوم بإجراء الدراسة في الموقف الطبيعي، ويجبُ ألا ينظر إلى البحث النوعي على أنه بديل سهل للبحث "الإحصائي" أو الكمّي، باعتباره يتطلبُ التزاما واسعا بالوقت في مجال الدراسة، والمشاركة في شكل من أشكال البحث الاجتماعي والإنساني والعلمي الذي لا يمتلك أدلة ثابتة أو إجراءات محددة) (إبراهيم، 1992، ص. 79).

الباحث في علم الاجتماع على خلاف المختص في العلوم الطبيعية ، يحاول فهم الظواهر كونها إنتاج فردي تحدده طبيعة الظروف والعوامل الاجتماعية هنا يمكن توظيف المنهج الكيفي والحصول على نتائج ذات قيمة علمية، كون الظواهر معطى قابل للتفسير والفهم، يعتمد على إطار مفاهيمي مصدره نظري ليس مجرد نسق من العلامات والرموز وإنما ينظر له كوسيط

للنشاط العلمي باعتبارها وسيلة التعبير عن الأفكار، ويعمل الباحث في علم الاجتماع على توصيفات للسلوك الإنساني المبنية على التأويلية المتمثلة في النفاذ إلى المعنى الذي يعطيه الأفراد لسلوكاتهم والتي من خلالها يسعى الفاعلون أنفسهم إلى صياغة وإعادة صياغة الواقع الاجتماعي، ذلك ما يميز علم الاجتماع عن باقي التخصصات كون الفاعل يمثل نواة الظاهرة الاجتماعية وبالتالي فان جدلية الذاتية والموضوعية مطروحة بقوة في علم الاجتماع، بالإضافة إلى إمكانية أن يكون الفاعل باحث في دراسة، ومبحوث في دراسة أخرى.

4- الذاتية والموضوعية وطبيعة المنهج:

ساد اعتقاد في العلوم الإنسانية والاجتماعية أن نموها ومصداقيتها مرهونة باستعمال أكثر للتكميم في بحوثها، رغم إدخال الكثير من الفروع والتخصصات مثل الاقتصاد، علم النفس، علم الاجتماع للمعالجة الكمية في دراساتها اقتداءً بالعلوم الطبيعية وتجنبا للوقوع في الذاتية، لكن هل يمكن إخضاع كل الظواهر في هذه التخصصات للتكميم خاصة علم الاجتماع؟، لذلك فهي ملزمة باستخدام طرق أخرى وأساليب تتناسب مع طبيعة الظاهرة المدروسة خاصة تلك التي تحتاج معايشة مجتمع البحث، ودقة الملاحظة والفهم الشامل للتجارب التي يعيشها الأفراد.

كثيرا ما تُثار مسألة الذاتية والموضوعية في علم الاجتماع باعتبار أن الذاتية هي أحد الصعوبات والمسائل الجدلية التي شغلت المختصين منذ المراحل الأولى لنشأته، خاصة بين المدرسة الفرنسية التي تزعمها (إميل دوركايم) والألمانية التي بقيادة (ماكس فيبر) حيث دعت الأولى إلى اعتماد منهج العلوم الطبيعية من أجل الوصول بعلم الاجتماع إلى الدقة والنضج المعرفي الذي حققته العلوم الطبيعية؛ خاصة من خلال قاعدة تشييئ الظاهرة الاجتماعية على شاكلة الطبيب الجراح الذي يعتبر جسم الإنسان شيء جامد بهدف التقليل من احتمالية الخطأ؛ ولتجنب تدخل الجانب العاطفي أو الإنساني في العملية الجراحية، مصدر هذا النضج في الطرح المنهجي هو انتقاد الطابع النظري والفلسفي (لأوغيست كونت) في قاعدة تطور المجتمع عبر المراحل الثلاثة، (وقد رجع إلى تاريخ الإنسانية لتأكيد صحة قانونه، حيث ذهب إلى كل مرحلة من هذه المراحل، تماثل مرحلة من حياة الفرد، فالمرحلة اللاهوتية تمثل الطفولة، الميتافيزيقية تمثل المراهقة والشباب، الوضعية التي استقرت عليها الإنسانية) (خزار، 2013، ص. 131).

لا يمكن ملاحظة ولا اختبار هذا التفسير حسب (دوركايم) لأن الملاحظة تكون من الخارج وهو نفس الانتقاد وجهه لـ:(هاربرت سبانسر) بالنسبة لقاعدة التعاون في المجتمع هو المحرك الأساسي للمجتمعات، فالمفروض أن هذه النتائج تأتي بعد البحث الإمبريقي.

لكن الإشكال الحقيقي بالنسبة لهذا التيار الوضعي الذي (يعتبر أصل المنهج الكمي في علم الاجتماع) لا يكمن في الاختلاف بين أجياله والتراكم المعرفي لديهم، إنما يكمن في مبدأ تبني منهج العلوم الطبيعية وإسقاطه على الظاهرة الاجتماعية؛ فهل يمكن إخضاع الفرد والجماعة للتجربة على شاكلة العلوم الطبيعية؟ وهل يمكن الاكتفاء بالأرقام في تفسير مختلف الظواهر الاجتماعية؟ وهل التجَرُد من الذاتية في علم الاجتماع يعتبر من الموضوعية في الدراسات والبحوث السوسيولوجية باعتبار خصوصية هذا العلم؟، وماذا عن الذاتية التي يمكن أن تخدم الموضوعية؟

الإجابة على هذه الأسئلة يمكن اختصاره فيما يلي: من الناحية الأخلاقية الكثير من الباحثين يشعرون بأنهم مشتتين بين التزاماتهم البحثية ورغبتهم في التعرف على الحياة الحقيقية لأفراد عينة البحث خاصة في بعض الدراسات الحساسة التي تمس بشكل مباشر الحياة الخاصة لهم مثل: الإدمان، الدعارة، الباحث وهو يحاول دراسة هذه الظواهر الاجتماعية والأخلاقية الشائكة بأن يتمسكوا بكشف تفاصيل وأجزاء البحث بدون العلم الكامل والموافقة الصريحة من جانب المبحوثين يعد خرقا غير مقبول للمعايير الأخلاقية، أم أن الباحث الميداني لابد له كل المبررات كون الحياة الاجتماعية تتضمن عناصر التظاهر والتمويه، ولا يوجد مبحوث يفصح كل الإفصاح عن كافة أنشطته العميقة والخاصة) (ايمرسون وآخرون، 2010، ص. 89).

أما المدرسة الألمانية بقيادة (ماكس فيبر) الذي يعتقد في استحالة فصل الجانب الذاتي عن المجتمعي في معالجة الظاهرة السوسيولوجية من خلال فهمها من الفرد الذي أنتجها، أومن خلال المعنى الذي يعطيه الأفراد للظواهر التي يُنتجونها. ذلك الذي يميز هذا العلم حسب (ماكس فيبر).

حيث لا يمكن القبول بالضغط الذي تفرضه الجماعة على الفرد بينما الإرادة الفردية كيان مستقل عن الجماعة؛ لأنه يمكن أن يتصرف عكس ما هو سائد في جماعة الانتماء، وبالتالي فان مفهوم الصيرورة الاجتماعية والفعل المتبادل يصب في لب الدراسة الموضوعية للظاهرة الاجتماعية.

الظواهر في العلوم الاجتماعية التي تعالج كميا مثل: الطلاق، التهريب، البطالة بالرغم من إمكانية قياسها حسابيا إلا أنها من طبيعة كيفية وتعود إلى حقائق وواقع يبقى للتقدير ويبقى الحساب ليس أكثر من مجرد تكميم باعتبار أن هذه المعطيات الكمية لابد أن تتحول إلى قراءة وتفسير كيفي.

عندما يكون الهدف قياس نوعية ظاهرة ما، فان الأعداد في حد ذاتها لا تضيف شيئا مهما كانت دقيقة، كذلك فان وصفا نوعيا مفصلا سيكون عديم الفائدة إذا كان المعطى الرقمي أكثر

وضوحا. لذلك تبقى العمليتين مهمتين في الدراسات والبحوث السوسيولوجية (أنجرس، 2004، ص ص. 100، 101).

5- أدوات البحث في المنهج الكيفي:

1/5-تحليل المحتوى: يمكن توظيف تحليل المحتوى كأداة في حالة عدم وجود التجربة في الظاهرة المدروسة كأن تكون الدراسة عبارة محاولة لفك الجانب الخفي لمحتوى خطاب سياسي معين، أو وثيقة ما ذات أهمية يمكن أن تكون موضوع للدراسة. عُرف تحليل المحتوى منذ العصور القديمة من خلال تحليل محتوى الرسائل المقدسة خاصة رسائل الأديان السماوية الكبرى، اليهودية، المسيحية، الإسلام وما تزال تفاسير هذه الأديان مستمرة بمحاولات شبه تكميمية للمحتوى من خلال أسباب النزول، التوقيت، الإسقاط على الواقع بالإضافة إلى اللغة والسياق ثم تقديم تفسيرات كيفية تتمثل في مجموعة من الأحكام والضوابط لكل ديانة.

لم يظهر تحليل بالمعنى المعاصر للكلمة إلا في القرن 20مع محاولات تأسيس مستوى علمي من طرف (هارولد لاسويل) Harold Lasswel في جامعة كلومبيا والسوسيولوجيا التكميمية، اختص هذا العالم في تحليل ودراسة الداعية زمن الحرب مع ظهور النازية، والمعسكر الشيوعي كإيديولوجية؛ كانت و. م. أ تشعر بخطرهما جعلها تركز على الغزو الإيديولوجي غير المعلن(سري) ما دفع القيادة السياسية وأجهزة الأمن إلى محاولة الوصول إلى نتائج ملموسة من خلال الوسائل التي قدمها (هارولد لاسويل)؛ الذي يُصنف كمؤسس لهذا المنهج من خلال ما يعرف باستنطاق النص من الأسئلة الموالية: من يقول؟ ماذا؟ لمن؟ بأي وسيلة؟ وبأي تأثير؟

من: هو مصدر الاتصال أو المعلومة فهو المرسل أو مجموعة من المرسلين، أو المصدر حيث خرجت المعلومة.

ماذا: تعني الرسالة وهو تعبير غامض نسبيا وتشمل كل ما يرسله الوسيط مهما كان، كما تشير على اللغة

الوسيلة: وسائل الاتصال كذلك الطريقة التي مرت بها الرسالة مما يعني ضرورة دراستها كما يمكن أن تعني تشفير الخطاب وفك الشفرة.

لمن: تعني الجمهور المتلقي بمعنى الجمع لأن (هارولد لاسويل) Harold Lasswellتصور الاتصال بمعناه الجماعي وأعطى ذلك انطلاقة كبيرة لمدرسة الاتصال.

بأي تأثير: هو تأثير وسائل الإعلام على الجمهور وتكون غالبا في الدراسات السوسيوبسيكولوجية، هذا التساؤل أدى إلى دراسة التغذية الارتدادية.

هذه الأسئلة اعتبرت مكسبا لتحليل المحتوى، لكن المعالجة الكيفية انطلاقا من هذه الأسئلة لم تكن كافية للارتقاء به، خاصة كون النتائج المتوصل إليها ليست نفسها مع كل الباحثين، لذلك ظهر ما يسمى بالتيار الوصفي التكميمي في تحليل المحتوى (برنارد بيرلسون) Bernard Berelson الذي ركز على الرسالة وتجاوز بقية العناصر(الأسئلة) الأخرى، وكانت أهم إضافة له هي الفئات، حيث يقول بأن قيمة تحليل المحتوى تكمن في قيمة فئاته؛ متجها بهذا المنهج والتقنية في آن واحد إلى وصف المحتوى الظاهر للاتصال والخطاب بشكل موضوعي مع الاستعانة بالجانب الكمي في تفريغ المعطيات بهدف سهولة التحليل. حيث قسمها إلى فئتين أساسيتين هما فئات المحتوى وفئات الشكل، ثم تتفرع منهما بقية الفئات الأخرى بالنسبة لفئة الشكل تجيب على السؤال كيف قيل؟ وتتكون من:

- فئة شكل الاتصال: تعمل على تحديد الوسيلة المستعملة في نص الاتصال (كتاب، إذاعة، تلفزة، مقابلة...الخ)
- فئة شكل العبارات: تعمل على تحديد الجانب النحوي والتركيبي للجمل.
- فئة الأسلوب: نص الاتصال أو الخطاب ذا كان كناية، تلميح، بلاغة...الخ

أما بالنسبة لفئات المحتوى: نجد فئة الموضوع أو المادة المعالجة، فئة الاتجاه، فئة القيم، فئة الوسائل، فئة الهدف، فئة المرجع. ومن أجل صياغة صحيحة لهذه الفئات لابد من توفر مجموعة من الشروط منها الوضوح، الشمولية، الحصرية، الملائمة. لتكملة العملية لابد من استخراج وحدات التحليل التي لها علاقة مباشرة بفرضيات البحث من خلال تفكيك نص الاتصال وتصفيته باختيار ما يخدم اختبار الفرضيات، هناك ثلاث وحدات أساسية هي وحدة التسجيل، وحدة السياق، وحدة العد والقياس (سبعون، 2023، ص ص. 132-134). هذه باختصار بعض المعلومات غير مفصلة للفئات ووحدات تحليل المحتوى (التفصيل في الفئات، والوحدات مع أمثلة ونماذج موجودة في المرجع المذكور أعلاه).

مزايا تقنية تحليل المحتوى تتمثل في كونه تقنية تعتمد في كثير من الحالات على كل مفردات عينة البحث، أوكل الخطابات والنصوص لأديب وسياسي ما، كما يمكن اللجوء إلى المعاينة الاحتمالية من ضمن مجموع هذه الوثائق عندما تكون الوثائق كثيرة، ويمكن الاعتماد على المعاينة غير الاحتمالية حسب طبيعة الموضوع، ومشكلة البحث (انجرس، 2004، ص ص. 323، 324).

تسمح تقنية تحليل المحتوى فحصا عميقا للوثاق مع إمكانية إجراء المقارنة بينها بتحليل متنوع بين الكمي فيما يخص إحصاء، المفاهيم والعبارات وتصنيفها ضمن فئات تم تحديدها مسبقا، الكيفي بالتأويل والقراءة السوسيولوجية ضمن إطار نظرية معينة.

أما بالنسبة للعيوب فتكمن خاصة في عامل الوقت حيث تتطلب هذه التقنية وقتا طويلا، خاصة إذا كان عدد الوثائق كثير، ومحتواها معتبر، علما أن محتوى هذه النصوص تعكس جزاء فقط من الواقع، وبالتالي فان النتائج تقتصر على فئة جد محددة.

2/5-المقابلة: تصب منهجية العمل بتقنية المقابلة في جوهر السوسيولوجيا الاستيعابية أوالفهم، (كونها أداة تسعى لمعرفة التمثلات، المواقف والاتجاهات عن طريق التفاعل الذي يكون بين الباحث والمبحوث، كما تكمن فعالية المقابلة في العلاقة المتكافئة بين الباحث والمبحوث، باعتبار أن الباحث لا يدري بما سيجيب به المبحوث...لأنها تفرض عندما لا تكون لدى الباحث المعطيات والمعلومات المرجعية اللازمة حول مجتمع البحث وعينة الدراسة) (سبعون، 2012، ص، 174). عكس الاستمارة التي تقدم فيها بدائل للإجابة في كل سؤال.

تشمل المقابلات العميقة الأفراد والجماعات. ويمكن تدوين البيانات بطرق مختلفة مثل الاختزال تسجيلات الصوت، أشرطة الفيديو والمذكرات المكتوبة. وتختلف المقابلات العميقة عن الملاحظة في طبيعتها ونوع التفاعل، ففي المقابلات هنالك شخص واحد يسأل وعدد من الذين تتم مقابلتهم. والهدف من هذا النوع من المقابلات هو سبر آراء الذين تتم مقابلتهم حول الظاهرة موضوع الاهتمام. للمقابلة أنواع تختلف من حيث شكلها وموضوعها ومجالها فمن حيث الغرض نجد **مقابلة لجمع البيانات** التي يقوم من خلالها الباحث بجمع البيانات المتعلقة بموضوع البحث غالبا ما يصعب الحصول عليها بالأدوات الأخرى، (كما يمكن أن تستخدم في الدراسات الاستطلاعية، كما يمكن استخدامها في مرحلة الاستخدام القبلي لبعض أجزاء البحث خاصة بالنسبة لتصميم الاستمارة، في حين نجد **المقابلة الشخصية** يستخدم هذا النوع في دراسات الحالة المرضية وذوي المشكلات من طرف الأخصائي الاجتماعي، أو النفساني بهدف كشف العوامل الأساسية المحيطة بالحالة قيد الدراسة. بينما **المقابلات العلاجية** تعمل على وضع خطة لعلاج العميل وتخفيف حدة التوتر الذي يشعر به) (معتوق، 2012، ص. 71). كما نجد المقابلة من حيث **عدد المبحوثين** فهناك المقابلات الفردية حيث يتطلب هذا النوع الكثير من الجهد، الوقت ونجده كثيرا في الدراسات النفسية والاجتماعية، (أما المقابلات الجماعية يوفر هذا النوع الوقت، والجهد، كما أن اجتماع عدد من الأفراد يساعد على تفاعل جيد بين الباحث والمبحوث من ناحية الإدلاء ببعض التفاصيل المهمة، كمية المعلومات، المشاركة في المناقشات والتعبير عن الرأي) (معتوق، 2012، ص. 72).

تقتضي المقابلة غير المعدة مسبقا التفاعل المباشر بين الباحث والمبحوثين. وتختلف عن المقابلة المعدة في عدة جوانب. أولاً على الرغم من أن الباحث قد يكون لديه بعض الأسئلة الدالة

أو المفاهيم المعينة ليسأل عنها نجده لا يحمل أسئلة مكتوبة مسبقاً. ثانياً المقابل حرفي قيادة المحادثة في الاتجاه الذي يريده. لكن من سلبيات هذه الطريقة أن الأسئلة غير محددة والإجابات تكون كذلك فمن الصعوبة تحليل البيانات التي تجمع عن طريق المقابلة غير المعدة مسبقا. بالنسبة لمزايا وعيوب هذه الأداة باعتبارها تجعل المبحوثين يقدمون كل ما يملكونه من معلومات، فإذا عرف الباحث كيف يستغل هذه الميزة فانه سيحصل على معطيات هامة جدا من حيث الكمية والنوعية؛ وتوفر مادة غنية من حيث المعاني خاصة إذا كانت طريقة الاتصال مرنة بين الباحث والمبحوث، غير أنها سواء كان مصدر هذه المادة شخصا أو مجموعات، المعطيات المُقدمة تبقى ناتجة عن تجربة وتأويل خاص، لذلك تبقى تفسيرات لا يمكن أن تكون خارج نطاق التفسيرات التي يقدمها المبحوثين (انجرس، 2006، ص. 198).

3/5- **الملاحظة:** تختلف الملاحظ عن المقابلة، والاستمارة لأنها لا تسأل المبحوث مباشرة، ويمكن أن تشمل كل المراحل البحث خاصة الجانب الميداني، انطلاقا من اختيار موضوع البحث الذي يكون من خلال هذه الأداة وصولا إلى الدراسة الميدانية، إما باعتماده كتقنية رئيسية بإعداد شبكة الملاحظة أو الملاحظة بالمشاركة وهي النوع المعتمد في الدراسات الأنتربولوجية من خلال البقاء لفترة من الزمن في مجتمع البحث، كما يمكن اعتبارها كأداة تدعيمية للأدوات الأخرى (تحليل المحتوى، الاستمارة، المقابلة)، بالإضافة إلى الصورة الفوتوغرافية التي توضح بعض جوانب الظاهرة كما أن البيانات يمكن أن تدون بعدة طرق كما في حالة تدوين بيانات المقابلة أو الاستمارة بالمقابلة، أو الاستمارة كلها تخضع لتقنية الملاحظة.

تتكون الملاحظة العلمية بكل أنواعها لدى الباحث من الملكة (habitus) التي اكتسبها في مجال التخصص، حيث يظهر التميز والاختلاف في الملاحظة بين الباحث المتخصص وغير المتخصص وتعمل الملاحظة على تسجيل كل التفاصيل التي تثير فضول الباحث بما في ذلك تلك التي تبدو تافهة على شاكلة (التحري في ميدان الجريمة)، وطبقا لهذا المعنى يمكن أن تكون الملاحظة مباشرة أو غير مباشرة، كما أن أي أسلوب لجمع البيانات يعد ملاحظة بما في ذلك جمع البيانات من السجلات.

هنالك العديد من الطرق المستخدمة في البحوث الكيفية ولا يحدد عدد ونوعية الطرق المستخدمة في بحث ما إلا خيال الباحث نفسه. فيما يلي نستعرض بعض أكثر الطرق استخداماً.

الملاحظة بالمشاركة واحدة من أشهر طرق جمع البيانات النوعية، كما أنها أكثر الطرق استهلاكاً للوقت والجهد. فهي تتطلب أن يصبح الباحث مشاركاً في الثقافة أو الإطار الذي يلاحظه.

وتتطلب الملاحظة بالمشاركة شهوراً وسنوات من العمل المكثف لأن الباحث يحتاج إلى أن يكون جزءاً طبيعياً من الثقافة حتى يضمن أن تكون ملاحظاته طبيعية.

كما أن معظم الدراسات المؤسسة لعلم الاجتماع كلها قامت على الملاحظة والتجربة كقانون العلاقات الرسمية الذي جاء به (التون مايو) حيث جعل من المصنع مخبرا له لمدة سنتين وهذا يدل اعتماد تقنية الملاحظة بالمشاركة التي تشير بشكل مباشر إلى المنهج النوعي أو الكيفي الذي من خلاله فسر معطيات رقمية تتعلق بكمية الإنتاج بوجود شيء خفي يتمثل في العلاقة الرسمية هنا كذلك دخول تقنية الملاحظة السوسيولوجية الدقيقة في التي تكونت من خلال قاعدة نظرية أحدثت الفارق بينها وبين المُلاحظ العادي غير المختص على شاكلة المختص في أحد العلوم الطبيعية مثل تشخيص الطبيب لحالة ما من خلال الأعراض التي يلاحظها في حين لا يمكن للإنسان العادي ملاحظتها.

تختلف الملاحظة بدون مشاركة عن الملاحظة بالمشاركة في عدة جوانب. أولاً الملاحظ المباشر لا يحاول أن يكون جزءاً مشاركاً في إطار البحث. ويحاول الملاحظ المباشر أن يكون حيادي حتى لا ينحاز في ملاحظاته. ثانياً، الملاحظة المباشرة تشير إلى اتجاه انفصالي. الباحث يلاحظ ولا يشارك، ونتيجة لذلك يمكن استخدام مختلف أنواع التقنيات لتدوين الملاحظات. ثالثاً، الملاحظة بدون مشاركة تكون عادة أكثر تركيزاً من الملاحظة بالمشاركة. ولا يغرق في كل الإطار. أخيراً الملاحظة المباشرة لا تستغرق وقتاً طويلاً مثل الملاحظة بالمشاركة فقد تلاحظ مباشرة موقفاً يستمر عدة دقائق فقط. مزايا هذه الأداة تتمثل في كونها التقنية الأكثر اكتمالا للملاحظة في الميدان، كونها تمنح الباحث معرفة وبيانات من مصدر مجموعة الدراسة، كون معايشة الأحداث يمنح شعورا خاصا وتوظيف للذاتية في خدمة الموضوعية، إضافة إلى ذلك إمكانية الاعتماد عليها في مختلف الأوساط الاجتماعية، والهيئات والمؤسسات ...إلخ. لكن ميدان الدراسة يبقى محدود لا يمكن الاستماع ومشاهدة كل شيء، وأحيانا صعوبة القبول الباحث في بعض المؤسسات، أومن طرف بعض الهيئات، كما أن غياب السرية واكتشاف هوية الباحث من طرف المبحوثين يخل بفعالية التقنية باعتبار أن أفراد عينة البحث لا يتصرفون على طبيعتهم، ويغيرون من سلوكاتهم بمجرد شعورهم أنهم محل مراقبة.

6- المناهج القريبة والموازية للمنهج الكيفي

6- 1- منهج دراسة الحالة: دراسة الحالة منهج معروف باستعماله في تخصص علم النفس العيادي وعادة ما يكون فرد أوما يعرف بالحالة النفسية لشخص واحد، أما في علم الاجتماع بمختلف فروعه فيعتبر منهج يسعى لدراسة أو حدة معينة قد تكون أسرة، مؤسسة اقتصادية،

خدماتية...الخ. يهدف هذا المنهج إلى التدقيق في الحالة المدروسة من كل جوانبها مع إمكانية التطرق إلى مراحل زمنية مختلفة من وجود الحالة موضوع الدراسة بمنهجية المقارنة الزمنية، بالإضافة إلى إمكانية الفهم النسبي لحالات مماثلة من الناحية الثقافية والمؤسساتية.

تهدف في الأساس إلى فهم الظاهرة موضوع الدراسة بحصر متغيرات البحث في وحدة مجتمعية صغيرة، أو عدد قليل من الأفراد و(ويتم الأسلوب من الدراسة عن طريق تركيز البحث على مفردة من المفردات دون غيرها وتناولها بالدراسة المتعمقة بالتحليل الشامل لكافة العوامل والعناصر والمتغيرات المؤثرة فيها والمتأثرة بسلوكها بحيث تصبح المفردة هي ميدان البحث للباحث ولا شيء غيرها) (معتوق، 2012، ص. 115) دراسة الحالة هي دراسة مكثفة الأفراد أو مواقف معينة. إذ ليست هناك طريقة واحدة لإجراء دراسة الحالة.

تتعدد الطرق والأدوات التي يعتمد عليها منهج دراسة الحالة إضافة إلى التقصي وجمع المعلومات والبيانات حول الحالة المدروسة؛ هناك إمكانية اعتماد نموذج علم النفس العيادي من خلال، السير الذاتية، الخطابات، سجلات العمل، السجلات الطبية، الوثائق الشخصية التي كتبها المبحوث (كتب، رسائل...) أفضل مثال على ذلك دراسة: الفلاح البولوني، رحلة مهاجر لـ: (وليام طوماس) (فلوريان تزانيكي).

كما يمكن اعتماد تقنيات أخرى مثل: المقابلة مع الحالة (مفردة) بهدف الحصول على بيانات، ومعلومات تفصيلية، هذه المعلومات يمكن أن تخص الحاضر، كما يمكن أن تكون متسلسلة زمنيا (الماضي، والحاضر).

الملاحظة: يلجأ الباحث عند دراسة الحالة من أجل التأكد من صحة المعلومات المتحصل عليها من خلال المقابلة، أو عند استحالة تطبيق المقابلة لظروف موضوعية.

يحقق منهج دراسة الحالة للدراسات السوسيولوجة إمكانية الحصول على صورة واضحة عن الحالة المدروسة بتفاصيل لا يمكن جمعها بمناهج أخرى، ويفيد ذلك في التنبؤ من خلال العودة إلى ماضي وحاضر الحالة المدروسة، باختبار فرضيات البحث والتوصل إلى فرضيات جديدة تكون بمثابة انطلاقة لدراسة جديدة. أما بالنسبة للصعوبات فتتعلق بالدرجة الأولى بتعميم النتائج باعتبار خصوصية الحالات سواء كانت فرد أو جماعة، إمكانية عدم التزام المبحوث بالموضوعية نظرا لمحدودية عينة البحث مما يزيد من الجانب الذاتي، منهج مكلف من حيث الجهد الوقت والمال، منهج تصعب فيه عملية القياس نظرا للكم الهائل من المعلومات.

2-6- المنهج الإثنوغرافي: قبل التفصيل في ماهية المنهج الاثنوغرافي لابد من معرفة المعنى الحقيقي لهذا المفهوم وتوضيح العلاقة بينه وبين المنهج الكيفي الذي يعتبر موضوع المقال فمصطلح

الاثنوغرافيا مزدوج المعنى حيث يستخدم بمعنيين مختلفين: أولاً بمعنى البحث الميداني أو الدراسة الميدانية، وثانيا بمعنى الدراسة الاثنوغرافية (المنوغرافية التي تعني الأحادية أ والواحدية) من Mono= واحد + Graphy = وصف أو دراسة الموضوع الواحد في المجتمع الواحد باختصار ، والأهم من الناحية المنهجية أن المقصود به هو: الدراسة الميدانية بمنهجية نوعية أو كيفية يعني أنه ليس هناك فرق بين المنهج الاثنوغرافي والمنهج الكيفي تقريبا إلا في التسمية، فالأول هو مصطلح (أنجلوسكسوني) أصله من الكلمة الإغريقية (اثنوس ethnos) والتي تعني الجماعة، والكلمة graphy التي تعني "كتابة".

تطور الاتجاه الاثنوغرافي للبحوث النوعية ضمن علم الانثروبولوجيا. والتركيز في الاثنوغرافيا يكون على دراسة ثقافة بكاملها، مفهوم الثقافة كان يرتبط بمفاهيم عرقية وجغرافية لكنه توسع أخيراً ليشمل كل جماعة أو منظمة. وعلى ذلك يمكننا أن ندرس ثقافة قطاع الأعمال أو مجموعة معينة مثل الأندية الرياضية (غيدنز، 200، ص. 174). والثاني تسمية فرونكوفونية أوروبية رافقت علم الاجتماع منذ البداية مع أعمال المدرسة الألمانية (فيبر، زيمل، مدرسة فرانكفورت) و(دوركايم، ماركس) في مواضيع محددة، حيث يقصد بالمنهج الكيفي في البداية مع المؤسسين الأوائل الفردية المنهجية (L'individualisme Méthodologique) كتقليد فكري عريق يفسر الأفعال الاجتماعية انطلاقا من الدوافع، العقائد الفردية بإدماج الظروف المجتمعية لأفعالهم كإطار نسبيا..... استقلالية الاختيار الفردي يمكن أن يُولد أفعال مختلفة بصفة عامة غير مرغوب فيها من خلال إدراك موسع..... في فرنسا من طرف (ريمون بودون). الفاعلون يتصرفون انطلاقا من الأسباب المعقولة لديهم حول الفعل، العقلانية الأداتية (الحكم/ التكلفة/ الفائدة) فالأفراد أشبه بالمختص في الاقتصاد بوعي أودون وعي أغلب الأفراد يتصرفون وفق هذا المنطق (Lebaron , 2014, p 29/30). ثم لم يلبث هذا التوجه المنهجي بالمعني الواسع للكلمة كثيرا حتى انتقل إلى و.م.أ من خلال المدرسة التفاعلية.

لم تعد الدراسات الاثنوغرافية تقتصر على منطقة اثنوغرافية أو مجتمع محلي، التقليدي أو القروي، بل يمكن أن تغطي دراسات للمجتمعات الحضرية، أو الصناعية أو غيرها كالثقافات الفرعية، أو بحوث على مؤسسات داخل المجتمع الصناعي الحديث. (ايمرسون وآخرون، 2010، ص. 13).

الأداة الرئيسية في الدراسات الميدانية الاثنوغرافية هي الملاحظة عموما، والملاحظة بالمشاركة بشكل خاص والملاحظ المشارك – كما توحي التسمية- هو باحث يصبح عضو في الجماعة التي يلاحظها...فأما أن يتظاهر بأنه عضو في الجماعة أو يقدم نفسه إلى المجتمع الذي يدرسه على أنه باحث علمي؛ لكن الطريقة الأفضل رغم أنها الأصعب هي الأولى باعتبار أن عينة أو مجتمع البحث سيتصرف على طبيعته مما يخدم أكثر مصداقية واقتراب النتائج من الحقيقة العلمية (ايمرسون وآخرون، 2010، ص. 14).

تعتمد الدراسات الميدانية الاثنوغرافية على المقاربة النظرية السوسيولوجية كغيرها من الدراسات الأخرى، حيث تعتبر نظرية التفاعلية الرمزية بمثابة القالب النظري الأقرب لفهم العلاقة بين أفراد مجتمع البحث في تفاعلاتهم اليومية من ناحية، ورؤية العلاقة بين الباحث وعناصر مجتمع البحث من ناحية أخرى، وهي طريقة تأخذ كذلك بعين الاعتبار منهج تحليل الخطاب الذي يفك دلالات ومعاني الفعل ومقاصد كل فاعل من التصرفات التي ينتجها، حيث يكون البعض منها محسوس يمكن إدراكه، والبعض الأخر خفي لاشعوري وغير محسوس، لذلك فإن مهمة الباحث هي اختراق نسق المعنى المحلي بالموضوعية حتى يصل القارئ في صورة أقرب إلى المعنى الحقيقي الفعلي نسبيا الموجود في نفسية الفاعل.يصر (غوفمان 125: Goffman1989) بقوة على أن البحث الميداني يعني إخضاع نفسك وبدنك، وشخصيتك، ووضعك الاجتماعي، أو أوضاع عملهم، ...وهذا يعني أن يكون الباحث مع عينة البحث ليرى كيفية الاستجابة للأحداث لحظة وقوعها، وأن يعايش بنفسه هذه الأحداث والظروف التي تؤدي إلى حدوثها (ايمرسون وأخرون، 2010، ص. 54)

ومما يدل على أن المناهج الكيفية هي تجربة منهجية خاصة بكل باحث ومجتمع فان هناك موقف متطرف حيث يزعم كثير من الباحثين الميدانيين أنه يكاد يكون بوسع أي شخص متعلم مغامر أن يذهب ببساطة إلى الميدان وأن يجري بحثا ميداني، وإن كانت ثمة حاجة فنية فإنه يتعلمها وهو في موقع الأحداث على طريقة أسبح أو أغرق. وهناك موقف ليس أقل تطرفا يؤمن أصحابه أن البحث الاثنوغرافي خاصة كتابة المذكرات الميدانية يقوم على مواهب وقدرة على الإحساس ممنوحة من الله ولا يمكن تعلمها على أية حال، في المقابل هناك باحثون يسلمون بأن عناصر البحث الميداني يتعين تعلّمُها، كما أنه من الممكن تعلمها ولكنهم يستثنون كتابة المذكرات الميدانية من هذه المهارات القابلة للتعلم. فهم يرون أن كتابة المذكرات تتميز بقدر من الفردية

العميقة الطابع الشخصي على نحو يجعلها تستعصي على التعليم الرسمي (ايمرسون وأخر، 2010، ص. 40).

بين المواقف الثلاثة فإن كتابة المذكرات الميدانية باعتماد المنهج الاثنوغرافي تقوم على مهارات يتم اكتسابها بالتعلم وصقلها بمرور الوقت، والمختصين في الاثنوجرافيا بحاجة إلى شحذ هذه المهارات.

8-العلاقة بين المنهج الكمي والمنهج الكيفي:

يمكن أن يكون التحليل كميا أو كيفيا، كما يمكن الجمع بين المنهجين في دراسة واحدة أما التحليل الكمي فهو أكثر استعمالا في الدراسات السببية، خاصة الدراسات التي تهدف إلى البحث عن أسباب الظاهرة، من خلال وضع استمارة أو استخراج التكرارات في شكل جداول، أوفي شكل رسوم بيانية، يستهدف الباحث من خلالها ملاحظة النسب المئوية المتعلقة بكل سؤال وبكل فرضية ومنها يحكم على الظاهرة بأي شكل، ويقارنها بالفرضيات التي انطلق منها ليتعرف على مستوى تحققها. (قاسيمي، 2017، ص. 49).

إذا وُفق الباحث في جمع وتفريغ المعطيات الكمية من خلال الجداول التكرارية مع النسب المئوية، أو بالرسومات البيانية، أو أي أسلوب إحصائي آخر؛ فإن هذه الأرقام تزداد أهمية ومعنى إذا تحولت إلى تحليل كيفي، وقراءة سوسيولوجية تجمع بين المنهجين.

...المبالغة في العمليات الإحصائية يفقد البحث السوسيولوجي جوهره ويفقد التحليل السوسيولوجي روحه، والاكتفاء بالعرض الإحصائي دون قراءة أو تقديم قراءة مقتضبة يفقد الجهود الميدانية معناها وهدفها الحقيقي، فلا يصبح معنى للمعطيات الإحصائية إلا من خلال إضفاء القراءة سوسيولوجية عليها واستنتاج ما يمكن استنتاجه من علاقات بين المتغيرات، ومهما يكن فلا يمكن الثقة المطلقة في البيانات الإحصائية فهي تقريبية ونسبية، ونتائجها دائما تقديرية، كذلك بعض الأرقام يتم الحصول عليها بصفة تقديرية وليست دقيقة بمجرد أنها أرقام أو إحصائيات.

في إجابات المبحوثين لدراسة حول ظاهرة البطالة مثلا: المبحوث الذي لا يملك منصب عمل دائم يُقدم نفسه بطال (عاطل عن العمل) في الإجابات على كل الأسئلة في التقنية المعتمدة، بينما في دراسة أخرى لنفس الظاهرة يتم تغيير صيغة السؤال، لنفس المبحوث عن ممارسة أي نشاط بالرغم من عدم وجود منصب العمل فان الإجابة بنعم مباشرة تصنفه عامل ويمارس وظيفة ما، لذلك لا يمكن الوثوق دائما حتى في الأرقام، وهناك حالات كثيرة ومتعددة حول معاني المفاهيم والاتفاق حولها مثل مفهوم البطالة.

في نفس السياق فالنسب التي تأتي بالفواصل في النسب المئوية مثل نسبة (22.63%) إحصاء أفراد عينة البحث فإنها تطرح مسألة وجود فرد كامل أولا توجد، في حين تبرز بقوة العلاقة بين المنهج الكيفي والمنهج الكمي في النقلة النوعية التي عرفها منهج وتقنية تحليل المحتوى في بعده التكميمي من خلال تفريغ محور البيانات الشخصية في جداول تكرارية، وكذا البيانات والمعلومات الخاصة بالوثائق التي تم اعتمادها كمحتوى مثل تاريخ صدورها عدد الصفحات، بالإضافة إلى تحليل محتوى الأسئلة المفتوحة في الاستمارة. ويلخص كل هذا (اميل دوركايم) بقوله: (لنجعل من علم الاجتماع تخصصا مستقلا لابد من فتح المجال لتيار فكري يتميز عن تقاليد المدرسة الألمانية بمنهج كيفي لكنه يقوم على تقصي إحصائي (كمي)، المنهجين حسبه في علاقة تنافسية وتكاملية في الوقت نفسه.(Montoussé, Renouard, p, 31) . كما أن برمجيات الذكاء الاصطناعي التي تقوم بتحليل محتوى النصوص مثل: برنامج LIWC (Linguistic Inquiry and Word Count)، Text Blid, Social Media Analysis هذه البرامج تجسد بحق العلاقة التكاملية بين المنهجين.

جدول مختصر يوضح الفرق بين الدراسات الكيفية، والدراسات الكمية

الدراسة الكيفية	الدراسة الكمية
المقاربة الفهمية(Intensive)	المقاربة التوسعية (Extensive)
الحد الأدنى من البنية أو الهيكلة الاجتماعية	الحد الأقصى من البنية أو الهيكلة الاجتماعية
المقابلة مفتوحة حول الموضوع	الاستمارة المقننة
لا توجد أسئلة تُحضّر مسبقًاً	أسئلة مُحضرة مسبقاً
حرية التعبير للمجيب	أسئلة تُفرض على المجيب
عدد قليل من الدراسات الاستقصائية	عدد كبير من الدراسات الاستقصائية

(Berthier. 2016, p 28)

يُبين الجدول أعلاه خصائص كل من الدراسات التي تعتمد على المنهج الكيفي، وكذا تلك التي تعتمد على المنهج الكيفي، حيث يظهر جليا أن الدراسات الكيفية ترتكز على التأويل والمعنى الذي يعطيه الأفراد لأفعالهم، في المقابل تقوم الدراسات التي تعتمد المنهج الكمي على المقاربة التوسعية المبنية على المعطيات الرقمية والقانونية الإحصائية ، كما يرتكز المنهج الكيفي على إعطاء الحرية الكاملة للمبحوث، بهدف الوصول للذات العميقة بلغة علم النفس، مع عدد محدود من المبحوثين، بينما تعتمد الدراسات الكمية على عدد كبير من المبحوثين باستمارة يتم عدادها مسبقا تضم أسئلة محددة ببدائل مفروضة على المبحوثين.

خاتمة:

الدراسات السوسيولوجية بالمعنى الحقيقي للكلمة ومنذ بداياتها مع المؤسسين الأوائل كغيرها من التخصصات والعلوم حاولت الاعتماد على منهجيات عديدة تختلف من باحث إلى آخر ومن مدرسة إلى أخرى باختلاف توجهاتهم الإيديولوجية، لذلك فمن يعتقد أن منهجية البحث عبارة عن تقنيات جامدة فان هذا جهل بالمعنى الحقيقي لمنهجية البحث على وجه الخصوص وعلم الاجتماع عامة ، لأن المنهجية الحقيقية المعمقة في علم الاجتماع بخصوصيته مرتبطة ارتباط وثيق بالنظريات المعرفية التي تزود المنهج بالأدوات، المفاهيم، الفرضيات التي يحتاجها المنهج، والمنهج بدوره يسعى لدراسة ظواهر معينة وتشخيصها بكشف كل ما هو خفي من عوامل وعلاقة بين المتغيرات لبلوغ نتائج نسبية قريبة من الموضوعية، هذه الدراسات الميدانية، أو الامبريقة يمكن أن تتحول إلى نظريات، وبالتالي فان العلاقة تكاملية وجدلية في الوقت نفسه بين المنهج والنظرية، ويجب التأكيد كذلك على أن المنهج يتأثر بالانتماءات الأيديولوجية للعلماء والباحثين.

لا يمكن الحديث عن القطيعة بين المناهج رغم الاختلاف المذكور آنفا لأن استقلالية علم الاجتماع لم تكن لتتحقق لولا التنوع والتفاعل المباشر وغير المباشر بين العلماء والمختصين في علم الاجتماع بصفة عامة، فقط يبقى الهدف المنشود الذي يسعى علم الاجتماع لتحقيقه دراسات سوسيولوجية موضوعية تعمل مساعدة الأفراد والجماعات للوصول إلى السير الحسن للحياة الاجتماعية للأفراد. L'objectif principale de la sociologie est le bon fonctionnement des sociétés

لذلك وجب العمل على مبدأ المنهج المناسب للظاهرة المناسبة؛ من الناحية الثقافية والفكرية ومن الناحية التقنية وكل ما يتعلق بطبيعة الظاهرة، حجم العينة، الوقت المخصص للدراسة...الخ، ذلك كون الظاهرة السوسيولوجية في حد ذاتها تتوفر على مجموعة من المواصفات التقنية؛ وتتميز بثقافة معينة تختلف بها مع نفس الظاهرة في مجتمع آخر. لذلك فإن توطين المعرفة بصفة عامة، والمعرفة السوسيولوجية على وجه الخصوص أمر في غاية الأهمية للوصول إلى مراحل متقدمة من النضج المعرفي لعلم الاجتماع من أجل تجاوز السؤال الذي طُرح ومازال مطروحاً هل الاجتماع في المجتمعات غير الغربية بما فيها المجتمع الجزائري يعاني من أزمة نشأة أومن أزمة نمو لعلم الاجتماع؟

قائمة المراجع

- انتوني جيدنز، (2000)، قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمد محي الدين، محمد الجوهري، دون بلد النشر، المجلس الأعلى للثقافة.

- أنجرس موريس، (2006). منهجية البحث في العلوم الإنسانية، ط2، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون، الجزائر، دار القصبة للنشر.

- إيمرسون روبرت، راشيل فريتز، لندا شو، 2010، البحث الاثنوغرافي في العلوم الاجتماعية، ترجمة هناء الجوهري، القاهرة: المركز القومي للترجمة.

- بدوي عبد الرحمن، 1963 مناهج البحث العلمي، القاهرة: دار النهضة العربية.

- خزار وسيلة، 2013 الإيديولوجيا وعلم الاجتماع. ط1، بيروت، منتدى المعارف.

- سبعون سعيد، (2023)، الدليل المنهجي في إعداد المذكرات والرسائل الجامعية في علم الاجتماع، الجزائر: دار القصبة للنشر.

- قاسيمي ناصر، (2017)، التحليل السوسيولوجي نماذج تطبيقية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،

- محمد إبراهيم فتحية، وآخرون، (1992). مدخل لدراسة الأنثروبولوجيا المعرفية، السعودية دار المريخ للنشر الرياض.

- معتوق جمال، (2012). منهجية العلوم الاجتماعية والمنهج الاجتماعي، ط1 القاهرة: دار الكتاب الحديث.

- Berthier Nicole, 2016, Les Techniques D'enquête en Sciences Sociales, Paris, Dunod Colin.

-Lebaron Frédéric ,1014, 35 Grandes Notions de la Sociologie, Paris, 2014, Dunod.

-Montoussé Marc, Renouard Gilles, 2009. 100 fiches pour comprendre la sociologie,4é, Paris, Bréal.